بطولة البيان

والمثل الأعلى المعلماة

لاشو Lachaud

كلمة في الخلق

[illegible] منذ ثمانين
وثمانين — صرخة استغاثة إلى الضمير البشري — فجاءة الدفاع عن الأفراد
والفئات في أوساط الجماهير وهذا الأخير أشرف من الحروب المقدسة لا يقل في عظمته
عن بطولة السيف والدم والعرق

وسنقف [illegible] في هذا الفصل أمام هذه الأمثلة العالية. ونصور أن أحدى هذه
الصور الخالدة هي التي نراها في [illegible] ذلك المثل الأعلى ذلك النموذج
الباهر الذي نجده ساطعا في [illegible] — في القرن التاسع عشر
ذلك القرن الذي انجرفت فيه سيول الحرية من كل صوب، وتنفس فيه الروح المشرقة
بأحلام العدل والحق — ذلك المثل هو [illegible]

والأستاذ لاشو [illegible] عرف كثير من معاصريه وحدثه. ثم
[illegible] سنة ١٨٣٠ [illegible] ثم بالمال إليه وقيد اسمه
في جدول المحامين [illegible] في عهد [illegible] يشق طريقه الى العجائب
في نفس الدور التي حدث حول هذا الشاب هذه الصورة الرمزية التي كثيراً ما
تمثل الرجل من عالم العبيد فوقه الى حيث لا يدري ولا يأمل:

رفعت الى [illegible] قضية [illegible] كثيرة وتشعبت لاشو من غمار
الدعاوى والمسائل، فدفعه به الى سماء الشهرة والمجد، وتحمله الى ذلك العالم
الباهر الخليق بعبقريته المتكبرة وهو [illegible]

ذلك أنه في يناير سنة ١٨٤٠ قبض على مدام لافارج في منزلها بجلاديه متهمة
بقتل زوجها. وكانت مدام لافارج — أو ماري كايل — فتاة عريقة الأسرة، حسناء

صراحة وسمو في التحقيق أكثر من خمسة شهود. على أنه لا يجوز أحد أن يصرح بالحقيقة ولو كان كثيرون يعرفونها لأن القتل ثم تنفيذ هذا في مأمور بلاليح وهذا في مأمور شبراس.

وبعد أن عرفت البوليس في تحقيق نحو عشرين شهرا قبضت على شخص بدعى حنا يسوس وأحاله الى محكمة جنايات الجيزة فحكم عليه بالاعدام ولكن الحكم ألغي في النقض وردت القضية الى محكمة جنايات الزقازيق وقبل نظر القضية أحضت مدام مرسيالج وولديها وكانت شهدت في أول تحقيق بكذبة هي أن البوليس أحضرت عن أمرهما زوجة مركزها الاجتماعي. فما أحضرتهما بتلك الكذبة أدركت البوليس خطأهما ولكن بعد فوات الوقت. وذاع الأمر عن حنا يسوس أنه محكوم عليه زورا بالاعدام الأمر الذي حمل محاميه لاعادته من غير وجه القضية والمرافعة.

وكان رأي المدعي العام منحصرا على الأمر في أن المرة الأولى يجب أن تؤثر فصاحته في هيئة المحلفين فيقضت حنا يسوس ويذهب دم القتيل هدرا. وباغ من سخطه أن الأمر لم يستطع مغادرة الجلسة الا تحت حماية رجال الشرطة.

* * *

واصبح الأمر سائرا في سبيل الشهرة بخطى واسعة يقدم له الرأي العام في كل وقت وآخر آيات غلائه من ظرافته وعبقريته وفصاحته.

وفي سنة ١٩٢٠ قدم الأمر الى الرأس ليستقر فيها وفي رحلته وكانت جماعة الحاوين في عاصمة بهرج في ذلك الحين بحفلات البيان والشعوذة. فأس الأمر مشقة في الظهور في ذلك المجتمع الرفيع بأرقى من شهرته التي سبقته. وبأرقى من اذاعته الواسعة بجانبه وعرفه. وقد كان الرأس يسهره أحيانا حتى قبل ذات مرة لطبيب دبيان أحد أصدقاء البيان في ذلك العصر: قال لي ما أرجوه هو أن استطيع أن أربح الى عشرة آلاف فرنك في العام!

على أنه لم يلبث حتى شق طريقه في المجتمع الباريسي طريقا ممهدة، ووصل بعد معركة طاحنة الى المكان الذي تتفق بمواهبه.

وقد كان لأمر يمشق الجناية بصفة خاصة. ويؤثر المرافعة الجنائية: فأمام محكمة

[illegible] يطالع الانسان الناس لاحظ ظاهرة ، وتأمل حالة ، وهذا ثابت يستطيع ان يكشف من خلاله ان لا يخلب معها ضروباً من الاقناع والتأثير ، وهذا أمر [illegible] ، ويعلم الله يشكو في اليوم الذي خلق فيه [illegible] الذي يحاكي مواهبه ومثله .

كان يهوى الجدال ، ويميل الى الخلاف ، ويركب من قضاياه ، ولا غرو فذلك [illegible] ، وشر الفصاحة ، وهناك لا يصطدم السامع بعاصفة من جدال الناس طغت في نفوسهم نصوص المعارف ، وأثرت عليهم تراثاً وجموداً ، وصورهم حمقاء وثوراً من الفصاحة ، بل يصطدم بهيئة الحلقين ، وسمو الثم عصى بمثل الأنبياء ، وبحلة الأولياء ، وتشفق على بلاد تخلف الانسانية ، وينتفي من الأنبياء ، وتحكم في [illegible] ، وتحكم فيها بغلب وذلك الطاغية ، والمتحلقين ، الى أعضاء الحكمة والبلاغة [illegible] ، وتحكم على سامعيه ، عرف لاستوكيف يستولي على سامعيه ، وكيف يوجه الجماعة الى أوضاعهم ، والوجهة الى اتجاههم ، وكان ما ننتم بخلاف الدة . الى [illegible] ، وسحر الكلام .

كان لاستوكيف يدعو سامعيه من مفاجأة الى مفاجأة ، كان يصقل الضمائر كما يصقل المثل تمثله . كان يجري ويحدد الوصية ليعيد الى القلوب عفاف نبع الفرات فيها .

ذلك لانه لم يكن خطيباً عظيماً فقط بل كان علامة مميزة للقالب البشري أيضاً . كان يدرس المتحلقين واحداً بعد الآخر ، يحدق في وجوههم ، ويحاسب أنفاسهم ، ويقرب من خطوة الجماعة حتى يراهم ، ويلقي الكلام الذي الى الحاضرين حيناً ، وحيناً وطولاً ، وعرضاً ، الا يترك أحداً حتى أنفاس من وجوههم الى ما بعد الأثر والتأثير .

هذا لاحظ الناس في بعض أيام الكلام حتى يقع في مقتل الاحساس الخاطئة في نفوسهم ، الى ذلك الحين الذي يقول عنده كلمته ، فكان لاستوكيف يحدد كل عنصر الاتهام في قضيته الحقيقية ، ثم [illegible] ، من [illegible] ، ثم يعود في [illegible] ، ثم يعود في [illegible] ، ثم يعود في

وقد بدا الدعي الصغير في مراعيه صمت لاشو وسكنت حركته . وتظاهر بعدم الاصغاء وعدم الاهتمام بما يقوله جناب كاتب مستدلي المحكمة معتمداً رأسه بين يديه . على أنه ما كان يغفل عن شيء ولا عن كلمة واحدة . وكان — طبعاً — يقول لنفسه — بزهو ذنيه . بهوى يده المحمومة تحتواه على قلبي يديه ليلقي كل عبء عنه . وهو يريد ليعيدها الى المعلقين مصابحة راحة !

وكان وهو جالس مستلقٍ بسيد هواجسه . يسيطر عبيا في أحد الأركان . ويتملك زعامها اذا حمي وطيس الجدل والمناقشة . وكانت لهذه القوة العظيمة يستعين بها خصومه العنيد العنيف الذي لا يلين ولا يرحم ولا يهدأ

٢ ٢ ٢

وكان لاشو آية في سعة الصدر وحسن السياسة . حدث ذات مرة أن كان يدافع أمام محكمة الاستئناف عن موكل له . وكان الخصم يسرد دفوعه بطريقة سيئة ويكرر اعترافه بالدين حتى ان رئيس المحكمة . وكان حديث عهد بالمحاماة . قال له قبل الجلسة : اسوف تحكم على موكلك بالاعدام في هذه القضية . فاجابه لاشو : أيس ذلك مؤكداً وسوف ترى . وفي اثناء الجلسة بدأ يتحدث عن موكله فلبث ساعات دون أن يلاحظ خلالها ما يحمله على الاعتراض . وكان الرئيس قد جن جنونه فرمت الى أيس وهو كان عبد الملاذ . فظل يشير على لاشو بقلمه وقلبه مراقبته وهو ينحني ويتمتم ويتمايل . ثم قال بصوته الشجي . ذلك الصوت الرنان الذي كانت تراقصه تموجات موسيقية في ذات الليلة السعيدة . ان الخطأ الخامسة . ولقد تعمدت أن أصيح أنه ساذج . وحدث أن رئيسه في جلسة صيح عاتب أن قال . قد ذكروا ان رحمة الله واسعة لا يأس منها . ولا تكونوا أشد رحمة من الرحمن نفسه !

وكانت هذه الكلمة الذكية سبباً في انقاذ حياة الرجل فقضى عليه بالاعتقال لا بالاعدام وهو لاشو الفيلسوف

وكان لا يحتمل وجوده في المحاماة موكلاً حتى بعد الحكم عليه بما يقل العفو عنه أو تخفيف العقوبة . فكان يزور موكله في حبسه ويعده عونه . بل كان يتلمس الحيلة والسبل لتبرئة موكله حتى اذا ما استنفدت جهوده . وبلغت أقصاها . ولا يجد الا عون

لقد دافع لافون عن كثير من المتهمين ، وحكم على كثير منهم بالاعدام ، ولاشغال الشاقة وغير ذلك من العقوبات الأخرى حتى بات من الصعب عليه أن يبقى لكل منهم موجدة في نفسه ، وقد حدث ذات مرة أن محامياً قضى حكم على موكله بالاعدام فأتى الى لافون مضطرباً وأخذ يشكو اليه ، ويسأله فضل له : أو ضحت مكالمات تفاصيل قضية الاتهام ، وقد سمح بها عدة مرات ، ثم طلبت اليه العفو عن موكلي وهو حكم صدر ضده غيابياً عندما كان يطرد المتهمين عدة مرات ، فكاف قلم الفصالة على روح موكلي ... الواقد منه أن يقبل الفتى ويعده بأنه سيبذل كل ما في وسعه للعفو عن موكله ، وتعهد عن الاعدام !!

تراقب لافون في عدد كبير جداً من القضايا التي لا تكاد الأعصاب به في ذلك القضاء غير أنه يمكن أن يقال عن لافون دائم الحظ ، والتقى بحوادث الحادثة التي يتراقب عنها ، وكان ذلك من حظه الحسن ، فقد كان في مصر ، إبان في الجلسات . ولا يكاد يخرج في مدة واحدة ، وكانت تلك الاعمال التي لا تصعب ، ولا تحدث ، ولا تثير أكثر من عمل ، وإن ظفر الى مصر ، بعدة قضايا شواغل شهرى لا حد لها ولا انتهاء .

وكان لافون يدرس موكله ، ويتأثر به ، ولا يعنى الا الى ما توحيه اليه الحرفة ضميره . ولد في ديسمبر سنة ١٧٧٣ ، وتوفي عن الثالثة والثمانين من عمره الطويل الحافل . وقد ذكر دارين في القائد الفرنسي الذي عاش الى الثانية حيث أكبر دولة واحدة في حرب السبعين . وأنه وحيد الحاكم الذي عقد لاتفاق الدفاع عنه بعد أن أتم كبر الخامسة في ذلك العصر المتقدم الذي عاش عليه من سخطه وأهمية ، ودفع عن القائد الشهير الرابعة والثمانين كاملة ، ولا فضاه الحد بصحته وبيانه . ليس أن فكرته العسكرية وصدر الرأي العام حكمت على القائد بالاعدام ، فاستعدت في الطال أمر العفو عنه وسجن في حصينة سنت مرجريت ثم توفي في فراشه .

وكان لافون دقيقاً عظيماً في كل قضاياه ، كان قلما يعتمد الشفاء ويعتمد على الأدلة المادية التي تكون وحدها الأساس الذي يقوم عليه الدفاع عن متهمين ، وكان

بل كثيراً ما انفق من ماله الخاص لخير اولئك الذين يدافع عنهم . على انه كان يتقاضى الاجور العالية من كل موكله من الاجانب . فقد حكى مثلاً عن احدى الشركات المالية انها قدرها ستون الف فرنك . يتراءى لها صد الخديوي (اسماعيل) في مصر . وقد اشترت تلك الشركة قصاف لحد بلاد النيل . وتتبع اسمائل الصافية وحرارتها الشمسية . ومساحة ارضها الخ الخ

وكان فضلاً عن عبقريته نهضته . موفقاً للصحافة والسياسة . وكان مذكي العقيدة حاد الفهم اصدقائه في ذلك العصر مثل جول جرفي . وجول فري . وبيون غامبتا وغيرهم من اقطاب الجمهورية

* * *

استمر المحامي العظيم يبذر جهوده . ويسرف في تبذيرها ذات اليمين وذات الشمال . حتى ناهز الثمانين عاماً فاصابه ضرب من الشلل في سنة ١٨٨١ ، في سن الثامنة والستين اضطره ان يذهب الى الجنوب للراحة والاستشفاء . على انه لم يلبث هناك طويلاً حتى عاجلته المنية . المنحدرة امثال ذلك الجبار على السكينة والخمود . اراد لاسوان ان تموت امام ذلك الخاطر (الخاطر الذي يلي هيئة المحكمة) الذي طالما شهد حضوره وقاره معاذ في باريس في فبراير سنة ١٨٨٢ . وترافع امام محكمة الجنايات مطالعاً عن الصحف دون الذي اتهم باختلاس مليون من مصرفه . ترافع والاعياء يعاب على حركاته وخطوات على صوته حتى قال عنه احد اصدقائه من سمعوه يومئذ : كان صوته كأنه يخرج من القبر . وكنا نصغي اليه في اضطراب وأسى . ودهشة معاً . كيف يحاول ان يضبط آخر خيوطه وحبله . وقبض على الاشياء يوشك ان يرافع بعد .

على ان لاسوان فصل حتى النهاية . حتى شمل الشلل كل اعضائه وشعوره في فراشه يوم ديسمبر سنة ١٨٨٢ هوى ذلك الكوكب المتألق . والدخان يتصاعد والمك كذلك الماهر الخالد

* * *

غرب ان اكتب هذه السطور عن لاسوا شعوراً عميقاً بأني اصف في نفس الوقت شخصية شرقية كبيرة . وعلماً من اعلام المحاماة والمبين في عصرنا . لايزال

صوتا الحق ذين في آذاننا ، وعقربته الدورة موضع فخارنا واعتزازنا .

ذلك العالمي الشرقي الكبير هو استاذنا العلامة ابراهيم بك الهلباوي العالمي المصري على حد سواء ، وبالله الصابر ، وبركته الدائم ، ولشاطئه الفارح ضمه فجسيم مكل ما يليق من الجلال في مثاله العظيم الاثير .

ستبقى ذكراه ناصعة في الخالدة ، على مقصة الخطابة فارسا به ، والمجد العالمي التاريخي ، والخلق القرآني يشرق الاباب بغرة ملكه وسحر بيانه .

وأبناؤه — وهم اشياخ الكبير — يحسبون من الفخار ان يقفوا امام محاكم العالمين المختلفة يقص لها في اقتدار وبراعة الدفاع كما كان يفعل الاستاذ .

وبراعته في العمل السياسي ، والذود الاختيارات صفحة ناصعة يعتز من يطالعه الذي لا ينضب ، وفصاحته التي لا تعرف الكلال ، وقوة الحجة ، وروعة الدليل ، وسلامة المنطق ، وحسن الخطابة ، ومن كل ما يليق بالخطيب المفوه ، والمحامي المقتدر ، والسياسي المحنك ، والعالمي الفذ من حبه .

فهو الاديب الكريم الاستاذ وحسبه ذكرا !

محمد عبد الله عنان
المحامي بالقاهرة